خطاب الأستاذ عبد الهادي هاشم
في حفل استقبال الأستاذ أحمد راتب النفاخ

الحمد لله وحده ، والصلاة على من لانبيّ بعده ، أمّا بعد :

فقد قارب مجمعنا أن يبلغ الستين من عمره المديد إن شاء الله ، تعاقب فيها على حمل أمانته أفذاذ من أفاضل الرجال يضنّ الدهر بأن يجود بأمثالهم ويعجز عن أن يمحو ذكراهم ، وقد تخطّفت المنية الرعيل الأول كله منهم ، وانتقل إلى خلفائهم واجب الجهاد الأكبر في نصرة العربية والحفاظ على تراثها ، وقد صدعوا بما أمروا ، وأوفوا بما عاهدوا ، وأعانهم على ذلك ما أوتوا من عزم ، وما مُكّنوا لهم من معرفة ، فهم لايفتأون يعملون على أن تظلّ راية هذه اللغة الشريفة خفّاقة في العلاء ، وأن تبقى شجرة مباركة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، ولئن أسينا على فراق من زاملناه في مسيرتنا منهم ، إننا لنسعد بمن ينضم إلينا يشدّ أزرنا ويشدّد عزيمتنا وينهض بما كلّت سواعدنا عن الاضطلاع به ، وناءت قوانا بتحقيقه .

ولئن فارقنا بالأمس علامة الشام ، زين رجالاتها الأستاذ الكبير الشيخ محمد بهجة البيطار فانّ لنا في خلفه الأستاذ أحمد راتب النفاخ عزاء وسلوانا فعلى زميلنا الجديد تعقد آمالنا في أن يكون خير خلف لخير سلف ، وأن يحمل الأمانة التي حُمّلها مَنْ قبله من العلماء العاملين العارفين .

عرفت الأستاذ راتباً منذ لواذ ثلاثين عاماً ، واتّصلت بيننا أواصر الودّ منذئذ ، وكنت لا أنفكّ أسمي للقائمه كلّما قيّض لي ذلك ، وكنت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كلّما لقيته أزداد إكباراً لما يتحلّى به من خلق رصين وعلم مكين وفكر نيّر واطلاع واسع وإحاطة بهذه اللغة العربية وأدبها وأسرارها وخصائصها ، إحاطةً لايكاد يجاريه فيها أحد من فرسان المعرفة وأركان العلم في عصرنا هذا . فما أسعدني اليوم إذ أنوب عن رجالات المجمع في استقباله باسمهم والترحيب بانضوائه إلى العاملين في هذا الصرح العلميّ الممرّد . وقد وُكِل إليّ أن أعرّف بزميلنا الكريم ، كما جرت بذلك سنّة المجمع ، وأن أسرد طرفاً من سيرته وآثاره ، وما بكم أيها السيّدات والسادة حاجة إلى ذلك ، ولن أزيدكم علماً بفضله ونبله ، أو إعجاباً بعلمه وخُلقه ، أو تقديراً لآثاره وتصانيفه ، ومع ذلك فلا بدّ من كلمات يسيرات تترجم لزميلنا الجديد .

ولد رصيفنا الكريم سنة سبع وعشرين وتسعمائة وألف ، أي منذ خمسين عاماً ، في هذا البلد الطيّب من أسرة هاجرت من بعلبك إلى دمشق في أوائل القرن الماضي إثر نزاع محلّي قام بين بعض طوائفها ، وكانت أسرته قبل ذلك قد جاءت من حوران إلى بعلبك . وقد بدأ الدراسة وهو في الرابعة أو الخامسة من عمره في (كتّاب) قرب مسجد الشيخ محيي الدين بن عربي ، ثمّ التحق بمدرسة (الصاحبة) الابتدائية وبعدها بثانوية جودة الهاشمي ، وظهر تفوّقه على لداته منذ صباه ، فكان أساتذته يؤثرونه بالتقدير والتشجيع ، ويتوسّمون فيه النبوغ والبراعة . وتجلّت مواهبه عندما انتسب إلى جامعة دمشق ، وكان أساتذة كليّة الآداب وكلية التربية يقدرونه قدره ، ويعرفون له منزلته ، فلما نال الإجازة عام ١٩٥٠ عيّن أستاذاً للعربية في ثانويات درعا ، ثمّ مالبث أن احتضنته الجامعة أستاذاً في كلية الآداب منذ سنة ١٩٥٣ ، وهو لايزال إلى اليوم فيها يتخرّج به مئات الطلاّب كلّ عام ينهلون من علمه ، ويتأسّون بخُلُقه ، ويجهدون في السير على أثره .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أحبّ راتب العربية منذ صباه ودرسها وحرثها وجلّى من أسرارها ماخفي عن الأكثرين من المعاصرين . ولم يقنع بتمكّنه من ناصيتها ، وغوصه على لآئها ، بل أراد أن يذيعها ويشيعها في ألسنة تلامذته وأقلامهم ، وعمل على أن يشركوه فيما علم ، ويفيدوا ممّا اتقن ، فالتزم الفصحى السليمة السهلة في حديثه اليوميّ ، وأخذ بها طلّابه في الجامعة ، وبثّ في نفوسهم محبّتها واكبارها وتذوّق خصائصها ، فطبعوا على غراره وحاولوا تقليده ، والتقليد ـ كما يقول الغربيون ـ أعظم دلائل الاعجاب ، وتخرّجت به طائفة كريمة منهم هي معقد آمالنا ومحطّ رجائنا في التمسّك بالعربية والحفاظ عليها في المستقبل القريب .

وراتب لايضنّ بعلمه ولا يبخل بعونه ولا يتمسك بكتبه وهي كثيرة غزيرة ، وبعضها نادر أو مفقود ، يبذل هذا وذاك خدمة للعلم وبثّا للحكمة ولعلّ كتبه التي في خزانته ، على كثرتها ، أقلّ عدداً من كتبه التي استعارها رفاقه وأصدقاؤه منه وهي لاتزال عندهم ، وهو إلى ذلك لايسمع بكتاب ظهر في موضوع يهمّه أمره إلا سعى في اجتلابه وقراءته أبالعربية ظهر أم بالفرنسية .

ما زرته في داره مرة إلا وجدت عنده زائراً من كبار رجالات البحث والتحقيق المعروفين في الشرق والغرب جاءوا يستفتونه في قضيّة علميّة أو يطارحونه الحديث في مشكلة لغوية ، يجدون عنده مالا يجدون عند الكثيرين من المتخصّصين المتمرّسين : معرفة واسعة عميقة ، وإحاطة شاملة متمكنة ، وحكما صائباً بريئاً من التعصب والجهل والتخليط . وقد يلقى زائره عنده طائفة من طلابه لم يقنعوا بما قرأوه له أو سمعوه منه في محاضراته فجاءوا يستزيدون النهل من ينبوعه والإفادة من فضله ويتزاحمون على الاستماع إلى حديثه ، وقديماً قال الشاعر : والمورد العذب كثير الزحام .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والأستاذ راتب رضيّ الخلق لا يستكبر ولا يتعاظم ، وهو القائل في بعض كتبه : « وبعد فما أشكّ ان بين عملي وبين ما أريده له بونا بعيداً ، وإني لآمل أن أجد من آراء الزملاء الدارسين ممن ينظرون فى هذا الديوان ما يعين على استكمال أسباب التحقيق من تقويم عوج أو تصحيح خطأ أو تلافي نقص » .

والأستاذ راتب إلى ذلك وفيّ لأساتذته حفيّ بهم ذاكر لفضلهم متأسٍّ بهم ، وطالما سمعناه يثني على علامة العصر الأستاذ عبد العزيز الميمني الراجكوتي (١) والأستاذ الشاعر محمد البزم والعالم الناقد المعروف الدكتور أمجد الطرابلسي . أعضاء مجمعنا ، والعلاّمة الراوية المحقق محمود محمد شاكر والأديب الكبير شوقي ضيف وغيرهم . .

أتقن زميلنا الكريم كثيراً من العلوم التي عرفها السلف أو استحدثها الخلف ، وبزّ أقرانه في فنون منها انتهت إليه الرياسة فيها في عصرنا هذا في بلدنا هذا : كالقراءات والنحو والبلاغة والعروض واللغة : فقها وعلما ، وأصبح حجّة فيها لاينازعه منازع ، هذا إلى أسلوب جزل متميز في الكتابة تفرّد به واشتهر ، وأسوق لكم مثالاً منه أختاره من المقدّمة التي وطّأ بها لديوان ابن الدمينة ... يقول الأستاذ راتب : « وفي حكاية تفاصيل الخبر خلاف بين الروايات يقع مثله في أكثر الأخبار التي تتعدّد طرقها ، وهو خلاف لا وجه للقطع فيه برأي ، ولنا بعدُ فيما اتّفق فيه وهو لباب

(١) يحتفظ الأستاذ النفاخ بإجازتين كتبهما له عام ١٩٦٠ بخط يده الاستاذ الميمني وفي إحداهما يقول : لقيت الطالب الراغب والشادي الأديب أحمد راتب النفاخ في القاهرة المحروسة وبمدينة دمشق الفيحاء ... وأجزت له أن يروي عني الكتب الستة الأمهات وموطأ مالك وسنن الدارمي ... وسنن الدارقطني وبلوغ المرام كما أجازني به شيخي حسين بن محسن بمدينة دهلي سنة ١٣٢٦ ...

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الخبر مقنع ، وأما ما اختلف فيه فأكثره أهون من ذلك إلا المكان الذي قُتِل فيه فسنقول بما رجح لدينا من رأي ، وليس من مذهبنا في هذا الموضع أن نتسع في حكاية الخبر ، ونحيط بتفاصيله ... وانما سنلمّ بجمله استيفاءً لعناصر سيرته » .

وزميلنا الكريم متثبّت متمكّن متأنٍّ في دراساته وكتاباته ، فهو لايرضى بالخاطرة الأولى ، ولا يطمئن للرأي إلا بعد تقليب وجوهه وتعمق جوانبه ، ولهذا قلّ ماينشره على الناس إذا قيس بما يعرفه ويتقنه ، ولكن ماينشره أبقى على الزمن من الكثير الكثير مما يفاخر به المتعجّلون المتسرّعون، ولا غرو فقد قال شاعرنا العربي :

بغاث الطير أكثرها فراخا وأم الصقر مقلات نزور

وأوّل مانشر من آثار راتب — ولم يكن قد بلغ يومئذ الخامسة والعشرين نقد موثّق محقّق لطبعة ظهرت سنة ١٩٥١ في مصر لـ (رسالة الغفران) . وكان بعض إخوان راتب قد اطلع على تعليقاته على تحقيق هذه الطبعة من كتاب المعرّي ، فأصرّ هؤلاء الأخوان على نشرها وبعثوا بها إلى مجلّة (الكتاب) في القاهرة ، ولكنّ المشرفين على المجلة جزأوا هذه التعليقات فنشروا بعضها وأحالوا مالم ينشروا إلى أصدقاء لهم أفادوا ممّا لم ينشر عند إخراج الطبعة الثانية من (رسالة الغفران) .

ثم أصدر الأستاذ راتب في العام ١٩٥٩ تحقيقه ديوان ابن الدمينة الشاعر الغزل المشهور ، وهذا التحقيق شطر من عمل ضخم أحاط بحياة ابن الدمينة وشعره وعصره كان قد قدّمه لكلية الآداب بجامعة القاهرة لنيل (الماجستر) واختيار زميلنا الكريم في مطلع شبابه لهذا الشاعر يشير إلى منزلة الغزل العذري الجميل في نفسه وإعجابه به . قيل لأبي السائب المخزومي : أترى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

رجلًا لايحب الغزل ؟ قال : أمّا من يؤمن بالله واليوم الآخر فلا . وراتب يؤمن بالله واليوم الآخر أشد الايمان ، فلا عجب أن ينصرف إلى دراسة غزل ابن الدمينة وتحقيق ديوانه وتجلية هذا الفن فن الغزل الفاتن البارع من فنون أدبنا القديم الأصيل ، و"طأ المحقق لهذا الديوان بمقدمة لخّص فيها ذلك البحث المطوّل الذي كان قد عقده على حياة الشاعر ومآتيه ، وعلى شعر الغزل وأطواره قبل ابن الدمينة وبعده ، ولا سبيل إلى التحدث عن هذا البحث الذي لمّا يطبع ، ولكن في التخليص شذرات منه تجلو صنيع الزميل فيه ، وتومىء إلى الجهد الذي بذل ، والأمْت الذي قوّم ، والحقّ الذي أظهر . وحسبي في الدلالة على بعض ذلك أن أذكر أمرَيْن غُمّ على مترجمي ابن الدمينة الأولين والآخرين وجهُ الحق فيهما ، فجاء راتب بالقول الفصل معتمداً حججاً لايرقى اليها الشكّ ، فقد خلّط الباحثون في تعيين موطن ابن الدمينة ، ولكن زميلنا الكريم ساق النصوص المتضاربة التي أشارت إلى ذلك ووازن بينها وقارنها بنصوص أخرى واستشهد بأبيات من شعر الشاعر حتى توصّل إلى حقيقة لم يتجلْها باحث قبله فقال : « والرأي الذي صحّ عندنا وتضافرت الأدلة والقرائن على نصرته أن موطن ابن الدمينة إنما كان في الاصقاع الواقعة جنوبيّ الحجاز ممّا يلي اليمن » . وادعى إلى الإعجاب والثناء توصّل المحقق إلى تعيين العهد الذي عاش فيه ابن الدمينة ، فقد خفي زمنه على المتقدمين والمتأخرين ، فسكت بعضهم عنه ، ورجم آخرون بالظنّ فيه ، وهم الأكثرون ، فجعله بعضهم شاعراً إسلامياً أو من شعراء الدولة الأموية أو من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية أو من رجال القرن الثالث الهجري . ولكن المحقق وقع على نص جليل يقطع باليقين كل شك إذا ماقرىء هذا النص على وجهه لا كما مسخه

شبكة الألوكة
www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الناسخ . أما النص فمن أغاني الأصفهاني وخلاصته : . . . « قال مصعب : فلما أفلتت من السجن (أي قاتل ابن الدمينة) هرب إلى صنعاء ، فقدم علينا وانتي بها يومئذ وال ، فنزل على كاتب لأبي كان مولى لهم . » هذا هو النص كما ورد في مطبوعة الأغاني ، والأمر لايستقيم ، فمصعب الزبيري لم يل اليمن ... فكيف يقول : وإني بها يومئذ وال ؟ درس المحقق تاريخ ولاة اليمن وعرف أن أبا مصعب لا مصعبا هو الذي ولي اليمن سنة ١٨٠ هـ ، واهتدى إلى خطأ في النسخ قلب كلمة (وأبي) إلى (واني) والصواب انزال النقطة من فوق الحرف إلى أسفله وجعل النون باء ، ويكون الكلام : وأبي بها يومئذ وال ، وبذلك تصح العبارة وتتسق ونعرف أن مقتل ابن الدمينة كان في أواخر سنة ١٨٠ هـ أو أوائل السنة التالية ، وان الأشبه بالحق أن يعد ابن الدمينة شاعراً من رجال المئة الثانية . ولا أستطيع في مقامي هذا أن أسوق حجج المحقق كلها ، ولكن أود أن أنوه بهذا الجهد الرصين في التحقيق العلمي الذي كان يحسبه بعض المعاصرين وقفا على الغرباء عن العربية .

وقد نشر راتب فيما بعد كتاب (القوافي) للأخفش ، وهو أحب كتبه المنشورة إليه وآثرها عنده ، ولهذا الكتاب قصة طريفة خلاصتها أننا لم نعثر إلى اليوم إلا على مخطوطة واحدة منه ، اطلع عليها زميلنا راتب وشرع في تحقيقها وأزمع نشرها ، ثم علم بنيّة بعض الباحثين الأفاضل في نشرها ، فتلبث راتب وتريث . فلما ظهرت مطبوعة الكتاب هاله ما وهم فيه المحقق وما أسقطه من الكتاب وما أساء قراءته أو فهمه فيه . فنشر في مجلة مجمعنا مقالة تعقب فيها هذه المطبوعة وبيّن أن في هذا الكتاب المنشور على صغره أربعة وستين موضعاً تجانب الصواب المحقق فيها ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ويكاد القارىء يسلّم للناقد بجلّها ، ثم عكف الأستاذ راتب على الكتاب فنشره نشراً علمياً موثقاً .

ومن الكتب المفيدة التي نشرها زميلنا كتاب (فهرس شواهد سيبويه): شواهد القرآن والحديث والشعر ، وقد وطّأ بهذا الفهرس للمشتغلين بكتاب سيبويه سبل الإفادة من شواهده وقواعده وعلّم شداة النحو بما وضع من هوامش وتعليقات كيف يمكن فهم سيبويه .

ولزميلنا الكريم مقالات كثيرة نشرت في مجلة مجمعنا وفي مجلة (العرب) ومجلة (معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية) ومجلات أخرى لايتسع المقام لسرد أسمائها . وموضوع مقالاته في الجملة تصحيح مايقع فيه المحققون والباحثون من خطأ عندما ينشرون شيئاً من تراثنا .

هذا ولراتب فضل مؤازرة إخوانه من كرام المحققين في تصانيفهم ، فما أكثر ما يلجأ إليه هؤلاء لاستشارته في مشكلة ، واستطلاع رأيه في معضلة ، ولولا أن بعضهم يمحضه الشكر والثناء في مقدمات كتبه ويشيد بفضله وعلمه لما علمنا بأمر هذا العون الذي يسدي والفضل الذي يولي . وإلى جانب مانشر الزميل من كتب هنالك مسوّدات مخطوطة كثيرة لكتب اشتغل بها ولا يزال يتابع النظر فيها . والتماسه الكمال في ماينشر مبرّأ من كل غلط أو زلل يحجزه عن دفعها إلى المطبعة ، على شدة تطلّعنا إليها ومن هذه التصانيف كتاب (معاني القرآن) للأخفش ، وكتاب (معاني القراءات) للأزهري ، وكتاب (طبقات القراء) للحافظ الذهبي ، و (الشيرازيات) و (المسكريات) لأبي علي الفارسي ، و (جمال القرّاء) للسخاوي ...

هذا وقد يعتب بعض خلصاء راتب عليه أنه يقسو أحياناً في النقد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ويشتدّ في الردّ ، فإذا رأى عوجاً قوّمه بقارص القول ولاذع التعريض وجارح التبكيت لايترفّق في ذلك ولا يتسمّح ، ولعلّ مذهبه في صنيعه هذا أن بعض القسوة على أدعياء المعرفة قد يردعهم عن غيّهم ، ويردّهم عن ضلالهم ، ويحفظ للعلم حرمته وللحق منزلته ، ويقصي المتعالمين عن الخوض في مالا يحسنون ، والتجرّؤ على ما لايتقنون ، ولكن هؤلاء الخلصاء لايرضون هذا المذهب ، ويؤثرون أخذ مخالفيهم بالحكمة والموعظة الحسنة .

أيها السيدات والسادة :

تحدثت إليكم بإيجاز عن راتب المحقق والعالم والباحث والكاتب ، ولم أحدثكم عن راتب الشاعر . وزميلنا الكريم عانى الشعر منذ صباه وقرضه وهو لايزال يافعاً في المدرسة الثانوية ، ومن ذلك أنه كان يقرأ من المقرر في الصف التاسع أو العاشر قصيدة مهيار الديلمي المشهورة التي يفخر فيها بآبائه من الفرس .. والتي مطلعها :

أعجبت بي بين نادى قومها ذات حسن فغدت تسأل بي

فحمي راتب لقومه ولغته وأخذ يرد على مهيار بأبيات على وزن قصيدته يخاطبه فيها ويقول :

لاتقل : لي في المعالي نسب ليس في المجد كآبائي أب

لغتي الضـــاد وقومي عرب عزّت الضاد وعزّ العرب

وله قصائد كثيرة ينحو فيها نحو الصوفية ويبدو عليها أثر ديوان إقبال (ضرب الكليم) ولكنّ راتباً زاهد في نشر شعره ، فإذا نشر شيئاً منه رمز إلى قائله أو عزاه إلى غيره من الشعراء .

وبعدُ فاكرم براتب زميلاً في هذا المجمع الذي عرفه وألفه وشاركه في أعماله منذ أكثر من خمسة وعشرين عاماً : تحقيقاً للتراث وحفاظاً على العربية وتمكيناً لها ودعما لجهد العاملين في إعزازها ، والسلام عليكم ورحمة الله .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net